خصائص التشكيل السردي في القصة المعرفية العربية

قصة حي بن يقظان أنموذجا

د. نوال بومعزة

جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي

البريد الإلكتروني:nawalboumawa12@gmail.com

ملخص الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى محاولة قراءة نص تراثي قديم، وهو قصة حي بن يقظان للأديب والفيلسوف العربي ابن طفيل، التي وفي كل مرّة ينفتح متنها على قراءات نقدية معاصرة، تعتمد آليات المناهج والنظريات الحديثة والمعاصرة. وبالرغم من أنّ فريقا من النقاد العرب لا يرى في تطبيق المناهج السبيل الوحيد لاستقراء التراث العربي، إلاّ أن العديد من الدراسات النقدية المعاصرة التي تبنت تطبيق تلك المناهج التي قد أثبتت فاعليتها في تفكيك وتحليل تلك النصوص. وهذا ماحاولت الخوض فيه من خلال هذه الدراسة، حيث بحثت في البنية السردية للقصة في تشكيلها العام، وهي خطوة للإجابة عن الإشكالات الآتية: كيف أسهمت القصة في تأكيد القضايا الفلسفية التي رغب ابن طفيل في إرسالها للمتلقي؟ ماهي أهم الخصائص الشكلية في القصة المعرفية ممثلة في قصة حي بن يقظان؟ ماهي جمالية تداخل الخطابات في القصة؟

طبعا، وللبحث عن إجابات كان لابد من توظيف منجزات السرديات الحديثة في استقراء خصائص التشكيل السردي، والمنهج السيميائي في البحث عن رموز وعلامات القصة.

1. التراث وقدرته على التجدّد.

تتراءى نصوص تراثنا العربي القديم بكل تجلياتها ،وهي تدعو الدارس إلى رحلة في عوالم إبداعاتها الأدبية بكل أنواعها، في مجال واسع وصدر رحب لإعادة قراءتها وفق اليات

وإجراءات المناهج النقدية المعاصرة التي لقيت – مؤخرا– رواجا في الساحتين الأدبية والنقدية العالمية والعربية.

تعد مقاربة النصوص التراثية بتوظيف المناهج النقدية المعاصرة، من بين أهم الإشكاليات التي تؤرق الناقد العربي، فالنص التراثي نسيج من الأصوات المتعددة التي تحتوي على العديد منم العلاقات المعرفية والجمالية.

إنّ البحث عن رؤية عصرية للنص التراثي من شأنه أن يكسر الأفكار التي تروج للصدام الحاصل بين التراث والحداثة،فالحداثة، " لا تعني رفض التراث ولا القطيعة مع الماضي بقدر ما تعني الارتفاع بطريقة التعامل مع التراث إلى مستوى ما نسميه بالمعاصرة "[1]

وأفضل أنواع الحوارات هي التي تحاول استقراء منجزات التراث العربي بمناهج نقدية معاصرة. حيث قدّم هذا النوع من الدراسات " أبحاثا فكرية جعلت التراث السردي العربي محورا هاما من محاور الجدل الثقافي في الوطن العربي ، وقد اقترن ذلك بوعي نقدي حداثي سعى الى التفاعل الإيجابي بين الموروث السردي العربي والفكر العربي، وذلك عن طريق الحوار العميق الرامي الى التأصيل والابداع، بعيدا عن العقد الحضارية والثقافية " [2]

يحضر التراث في حياتنا الاجتماعية والأدبية كمحفز للمضي الى الأمام، " فذاكرة الانسان تختزن بالموروثات ،" وتظهر هذه الموروثات المتعاقبة في مواقف الانسان المتعددة في حياته."[3]

فالتراث هو الممثل الشرعي لمقومات الأمة وشخصيتها لأنه " شيء قائم فنيا، وهو ذاتنا التي تنادينا من وراء العصور، وأنّ العودة إليه بقصد الاكتشاف والمعرفة ينبغي أن تكون طريقا لتنميته والامتداد في المستقبل بقيم لتطوّره عنه مستهلكة ر ؤاه " [4] لقد حدّد النّقاد المعاصرون من مثل صلاح فضل ، سعيد يقطين، عبد الحميد بورايو ،عبد الملك مرتاض حتمية العودة الى التراث كمنطلق لتحقيق جملة من الأهداف من أهمها " الكشف عن روح الأصالة في أمتنا من اجل متابعة مسار التقدم التي تحتمه حركة التاريخ الدائبة." [5] كذلك ما تعلق بالدلالات التي تحملها النصوص التراثية، فهي نصوص خالدة ،معانيها نحتاجها في كل

وقت،وفي كل زمن، وقضاياها صالحة ، وتتماهى مع البيئة المعاصرة ، فالتراث يمتلك القدرة على التجدّد ،فهو يحمل العديد من الكنوز المعرفية والاجتماعية والثقافية التي تمك ننا من الاستفادة من منجزات الحضارة العربية.

2. كتاب حي بن يقظان في الدراسات العربية.

هو أبو بكر محمد بن طفيل ، " ينتسب الى قبيلة قبس، ولد في آشي قرب غرناطة سنة 5 – 6 هـ ، وعمل طبيبا خاصا لحاكمها ، له مؤلفات في الطب ورسائل في علم النفس وفي نواحي فلسفية ، إلا أن الزمن لم يحتفظ منها الا برسالته : حي بن يقضان"[6] كان أديبا فذا ، وعالما وفيلسوفا ، رقيق المشاعر ، محبا للأدب والفن ، يستقطب منجزه الأدبي حي بن يقظان أقلام الباحثين والنقاد ، لاستقراء المزيد من القضايا والأفكار والخطابات ، خاصة في مجال توظيف الجمال والفن للتمعن في مخلوقات الله ، وهذا للطبيعة الصوفية التي ميزت النص ، فتأمل الجمال وسرده عن طريق اللغة ممارسة تستحق الوقوف ، حيث يرتقي الانسان الى اعلى مراتب التعبد ، فبعقله يستطيع ان يصل الى معرفة الله.

نالت رسالة ابن طفيل حي بن يقظان إعجاب النقاد القدامى ، ونالت حظها في الدراسات النقدية المعاصرة ، وخاصة في جانبها الفلسفي بل وامتد تأيير القصة في الآداب الأجنبية الغربية ، فقد قيل أن الرواية التي أبدعها الكاتب دانيل ديفوا Daniel Defoe (1221– 1731) المعنونة Robinçon Cruoe هي من وحي قصة حي بن يقضان ، ولعل الفيلسوف غوته Gut هو أول من بحث في علاقة قصة حي بن يقظان بقصة روبنسون كروزو عام 1719 ووقف غوتيه عند حد افتراض إطلاع ديغوا على قصة ابن طفيل في دائرة المعارف الإسلامية، فنجد " أن ظهور قصة حي بن يقظان كان في القرن الثاني عشر الميلادي ، بينما ظهرت القصة الإنجليزية روبنسون كروزو في القرن الثامن عشر الميلادي ، أي بعد ستة قرون من ظهور قصة ابن طفيل ، ولعلل السبق الزمني هو المفتاح الأول للمقارنات الأدبية في قضايا تأثير الآداب في بعضها البعض "[7] .

3ـ التشكيل السردي في قصة حي بن يقظان.

للعرب تراث قصصي غني ومتنوّع من حيث التشكيل والمضامين، مما سمح باتساع قصصه.

وتعد القصة المعرفية أو الفلسفية نمطا أصيلا في التراث العربي، فهي ثمرة تزاوج العديد من الخطابات والأنواع الأدبية، حيث تجسد" أفكارا ونظريات فلسفية عميقة، تؤدي بأسلوب قصصي سردي جميل ومشوق، والتي شكلت عبر سمات فنية، ورؤية جمالية، تحمل داخل نسقها جميع مقومات القصة، من حدث وشخوص وزمان ومكان وخيال وسرد." [8] تعتمد القصة المعرفية في تشكيل نسيجها على فعل السرد الذي هو بمثابة الوسيلة الفعالة لعرض المسائل والقضايا الفلسفية. وقد اعتمد ابن طفيل على استراتيجية نصية بالغة النضج، فحوّل القصة إلى نص جامع يثير قضايا الانسان في علاقته بالكون، ونظرا لصعوبة نقل هذه المادة الضخمة ارتكز ابن طفيل في قصة حي بن يقظان على التشكيل السردي الآتي:

أولا: الأسلوب القصصي.

بدا للمفكرين والفلاسفة العرب أنّ نقل تصوراتهم وأفكارهم التجريدية مباشرة إلى المتلق ي أمر بالغ الصعوبة، لذلك توسلوا الأسلوب القصصي في تحقيق هذا الهدف. فوجدوا في السرد القصصي أداة مؤثرة، وحاملة للأفكار، فأدواته الفنية والأدبية والجمالية تسهم في تمرير الخطابات الدينية والفلسفية والسياسية بطريقة سلسة، فالقصة المعرفية تفسح المجال أمام الكاتب للخوض في قضايا عديدة، فقد أخذت من القص الواقعي أحداثا وأخبارا، ومن القص الرمزي استطرادا وتسلسلا وتشخيصا للحيوان، ومن القصة الدينية والأسطورية..

ثانيا: الخيال والرمز.

تكمن براعة ابن طفيل في ابتداع تنويعات سردية معقدة تجمع بين البحث عن الحقيقة، وضرورة ايصالها للمتلقي باستعمال الخيال والرمز، وهنا تكمن الفطنة والذكاء في الجمع بين المتناقضات باعتماد أسلوب السرد، فالقصة تنتمى إلى " فكرة خيالية، لاتنتمى إلى مكان ولا إلى زمان، لكن فائدة عظيمة جن اها الفكر العربي منها: وهي الجمع بين العقل والدين، والارتقاء بالعقل من المحسوس إلى المعقول ، لمعرفة الله معرفة حدسية كشفية إلهاميه،

الغاية التي وصل إليها ابن طفيل بأسلوب أدبي بليغ." [9] ويبرز الأسلوب الأدبي البليغ في المقطع الآتي:

" فلما حصل له العلم بهذا الموجود الرفيع، الثابت، الوجود الذي لا سبب لوجوده، وهو سبب لوجود جميع الأشياء، أراد أن يعلم بأي شيء حصل له هذا العلم، وبأي قوّة إدراك هذا الموجود. فتصبح حواسه كلها، وهي السمع والبصر والشم والذوق واللمس. فرأى أنها كلها لا تدرك شيئا إلاّ جسما، أو ما هو في جسم. وذلك أن السمع إنما يدرك المسموعات، وهي ما يحدث من تموج الهواء عند تصادم الأجسام. والبصر إنما يدرك الألوان. والشم يدرك الروائح. والذوق يدرك الأمزجة والصلابة واللين والخشونة والملاسة. وكذلك القوّة الخيالية، لا تدرك شيئا إلاّ أن يكون له طول وعرض وعمق."[10] تعمل الأساليب الأدبية الموظفة في تقديم المادة الفلسفية على تسهيل فهم قضية كيفية إدراك الحقائق بواسطة الحواس. بالرغم من أنّ الطابع الفلسفي هو الغالب في كثير من الأحيان.

ثالثا: صورة البطل الإشكالي في قصة حي بن يقظان.

وهو بطل إشكالي حمل هموم الانسان بكل تناقضاته الانسان الباحث عن أجوبة لأسئلته ، تنتمي قصة حي بن يقظان إلى نمط أصيل في التراث العربي الإسلامي ، ففي نتيجة لتقاطع العديد من المعارف والفلسفات والتأملات الباطنية ، فالقصة المعرفية الفلسفية " تجسد أفكارا ونظريات فلسفية عميقة ، تؤدي بأسلوب قصصي سردي جميل ومشوق والتي تشكل عبر سمات فنية ، ورؤية جمالية ، تحمل داخل نسقها جميع مقومات القصة ، من حدث وشخوص وزمان ومكان وخيال وسرد" [11] هذا وعدت القصة الفلسفية ذروة انتاج الادب الفلسفي، " فقد أخذت من القص الواقعي أحداثا وأخبارا ، ومن القص الرمزي استطرادا وتسلسلا وتشخيصا للحيوان ، ومن القصة الدينية والاسطورية والقصة هي التي تحفظ تراث العقلين من المسلمين وغيرهم. "[12]

لقد نسج ابن طفيل شخصية البطل حي بن يقظان وفق تصوّرات فلسفية محكمة ،فكانت مقدمتها سردية استهلالية بالحمد لله والصلاة على رسوله الكريم ،ثم أخذ في بيان أسرار

الحكمة المشرقية ، وهو استهلال فلسفي يبين توجه الكاتب وتحديد مرجعياته للقارئ ،بعدها يحدد الكاتب الفيلسوف تمظهرات البطل ، فيصوّره من خلال عدّة م حطات يمكن إجمالها في :

أ – المحطة الأولى .

تتقمص الظبية في هذه المرحلة دور الأم بامتياز ، حيث عمل السرد على تقديمها ،فيظهر المكان سرمديا متخيّلا ، وتتقن الظبية دور الام التي تقدّم له الغذاء وترضعه وتعني به كأم حقيقية " فلما اشتد الجوع بذلك الطفل بكى واستغاث وعالج الحركة ، فوقع صوته في اذن ظبية فقدت طلاها ،خرج من كناسه فحمله العقاب . فلما سمعت الصوت ظننته ولدها .فتتبعت الصوت وهي تتخيل طلاها حتى وصلت الى التابوت ففحصت عنه بأطلافها وهو ينوء ويئن من داخله، حتى طار عن التابوت لوح من أعلاه، فحنّت الظبية وحنت عليه ورئمت به وألقمته حلمتها، وأروته لبنا سائغا ومازالت تتعهده وتربيه وتدفع عنه الأذى " [13] تشكل هذه المرحلة بداية تشكل صورة البطل لدى القارئ، فيستنتج من الوهلة الأولى أن بطل القصة غير عادي، بطل خارق يخضع لقوانين الطبيعة ، ويسخرها للإجابة عن أسئلة حول الخالق والخلق. لقد ألف الظبية والفتى حوّلها ابن طفيل عن طريق خاصية الأنسنة إلى علاقة حميمية، وكأنه يقول الطبيعة هي أمنا الأولى والحقيقية ،هي ملجأ حي بن يقظان، وهي مركز تعلماته الأولى، واسمه اختير لهذه العلاقة ،فحي من الحياة، ويستمدها من الطبيعة وهي التي علمته اليقظة وطرح الإشكاليات ،فعندما بلغ الطفل الحولين من العمر فيهذه المرحلة بدأ يتعلم عن طريق التقليد ومحاكاة الطيور والحيوانات الأخرى ، وفي أحضان الطبيعة تشكل ت انفعالاته ومشاعره الأولى : كالخوف والاستغاثة والقبول والرفض. فالطبيعة ممثلة في الظبية أسهمت كعامل مساعد في تطوير الملاحظة الحسية لحي بن يقظان ،" فمازال الطفل مع الضباء على تلك الحال ، يحاكي نغمتها بصوته ، حت ى لا يكاد يفرق بينهما، وكذلك كان يحاكي جميع ما يسمعه من أصوات الطير وأنواع سائر الحيوان ، محاكاة شديدة لقوة انفعاله لما يريده ..." [14] . تعمل تقنية الأنسنة على " تجريد الطبيعة من الصفة المادية و إضفاء

الصفات البشرية عليه ا ليسهل التعامل وتنظيم العلاقة معها ،وبالتالي خلق موائمة براغماتية لصالح الانسان كان حلا طبيعيا لابد أن يفرزه الواقع المعيش للإنسان البدائي".[15]

ب- المحطة الثانية:

وتمتد هذه المرحلة من السنتين حتى السابعة من العمر ،وفي هذه المرحلة يبدأ حي يتجاوز مناحي ضعفه وقصوره ويصبح قادرا على أداء بعض الأدوار الضرورية ،وهذا للحفاظ على استمراره في الحياة. وفي هذه المرحلة لم ينس ابن طفل تمرير خطاباته التي تعتمد التفكير الفلسفي من خلال تقديم المعرفة الحدسية أو الإشراق الصوفي، وهي بداية المواجهة مع الأشياء ، " لما رأى أن يده قد فقي له بكل ما فاته من ذلك ، وكان لا يقاومه شيء من الحيوانات على اختلاف أنواعها ، إلاّ إنها كانت تفر عنه ، فتعجزه هربا ،فكر في وجه الحيلة في ذلك ، فلم ير شيئا أنجح له من أن يتآلف بعض الحيوانات الشديدة العدو ويحسن إليها بإعداد الغذاء الذي يصلح لها حتى يتأتى له الركوب عليها.."[16]

ج ـ المحطة الثالثة :

وتبدأ هذه المرحلة من السابعة حتى الحادية والعشرين ،وهي من أطول المراحل النمو عند حي بن يقظان ،وهي تتمة للمراحل السابقة ، فمن خلالها يتعرف القارئ على علاقة الجسد والروح ، فالروح كما أدركها هي أسمى من الجسد ، والجسد آلة الروح ومسكنها لقد أخذ حي بن يقظان تفاصيل الحياة والتجارب من الظبية، ومن مظاهر الطبيعة :

يؤدي السرد في المرحلة الثالثة وظيفة تقديم المادة المعرفية ، فقد تعلم حي من الغراب عملية الدفن، وطبقها على أمه الظبية التي حزن على فراقها ، وهذه الحادثة فتحت أكمامه بابا للتفكير والتأمل وطرح الإشكاليات :

- الكشف عن العلاقات بين الأشياء متنافرة ومتضادة مثل علاقة الروح بالجسد
- عرف أن الإدراك يتم عن طريق الحواس ، وأن تعطل حاسة ما يؤدي الى تعطل وظيفتها الادراكية

- إدراك طبيعة الحركة من الأعلى الى الأسفل ، ومن الأسفل الى الأعلى كما أدرك خصائص المادة الهندسية التي تتعلق بالعمق والطول والعرض والارتفاع.
- الكشف عن مكونات الكون : الماء والهواء والتراب والنار

دـ المرحلة الرابعة :

وتبدأ هذه المرحلة من الحادي والعشرين حتى الثامن والعشرين ،وفي كل مرحلة حياتية يتطور طرق ووسائل التفكير عند حي بن يقظان ، فتوّسعت دوائر البحث لتطال الأفلاك والأجرام والنجوم.

هـ ـ المحطة الخامسة :

وهي المرحلة التي تقع بين الثامنة والعشرين والخمسين من العمر ، حيث ينقل حي بن يقظان من مرحلة النضج العقلي إلى مرحلة السعادة الكبرى، ومن هنا يرتقي البطل من دنس الجسد إلى رقي الروح متوّسلا الطريق الصوفي كمخرج لإدراك معنى الألوهية، وتوحيد الله عز وجل

و ـ المحطة السادسة :

وهي مرحلة الالتقاء بآسال وسلامان وهما رجلان يتشاركان مع حي بن يقظان في الجدل والبحث عن الحقيقة، وبتوظيف أسلوب التشويق في السرد، وصف ابن طفيل لحظة لقاء آسال وحي :" وولى آسال هاربا منه ، خيفة أن يشغله عن حاله، فاقتفى حي بن يقظان أثره لما كان في طباعه من البحث عن حقائق الأشياء. فلما رآه يشتد في الهرب، خنس عنه وتوارى له، حتى ظن آسال انه قد انصرف عنه، وتباعد من تلك الجهة، فشرع اسال في الصلاة والقراءة والدعاء والبكاء، والتضرع والتواجد، شغله ذلك عن كل شيء، فجعل حي بن يقظان يتقرب منه قليلا قليلا، واسال لا يشعر به، حتى دنا منه بحيث يسمع قراءته وتسبيحه، ويشاهد خضوعه وبكاءه. فسمع صوتا حسنا، وحروفا منظمة، ولم يعهد مثلها من شيء من أصناف الحيوان." [17] يحضر الخطاب السردي في هذا المقطع حضورا سينمائيا،

فيعمل السارد على جذب القارئ خطوة خطوة لتتبع موقف اللقاء بين حي بن يقظان وآسال. فكان دقيقا في اختيار النسيج التركيبي المناسب الذي يمكن أن يجسد هذا المشهد. لقد أدرك ابن طفيل تقنيات السينما من قبل أن تظهر كفن له خصوصيته ومجالاته، فهي "لغة ثالثة تفيد من كل من اللغة الطبيعية والشعر والتشكيل والموسيقى والطبيعة والفعل الإنساني وغيرها، فهي نتيجة لذلك متعددة الأبعاد..[18]

رابعا: فضاء القصة ما بين الفلسفي والمتخيّل.

أكدّ نقاد السردعلى أنّ السرد سؤال وجودي وفعل كتابي، يستبطن الانسان ليكشف عن الذات والعالم والوجود. فالحياة فسيرورتها سرد حيوي ومتواصل.

ولا عجب أنّ تستفيد الفلسفة من النسيج السردي اللغوي للقصة، "فالقصة ليست جامدة ومحاطة بمعايير محددة ونهائية، ولكنها كيان حيوي ومتجدد يتجدد بوعينا ويتغير بتغير رؤيتنا للحياة، وهذا هو المحك الرئيسي الذي تقاس على وقعه إبداعية العمل وقدرته على الاستمرار."[19]

إنّ نموذجا قصصيا مثل قصة حي بن يقظان من شأنه أن يثبت العلاقة الوطيدة التي تربط السرد بالفلسفة، "فمنذ نشأة الفلسفة كانت الأفكار الفلسفية يعبر عنها عن طريق استحضار عالم الخيال والرمز في قالب فني، وقد تدرج هذا الاستخدام حتى وصل القمة في قصة (حي بن يقظان) لابن الطفيل والذي قدّم لنا فكرة الفلسفة بشكل فني عن طريق القصة؛ وقد تجلى دور القاص هنا في البحث عن الحقائق العميقة للوجود الإنساني، جاعلاً منها تجربة سردية مثيرة، تدفع بالقارئ أثناء قراءته لها إلى أفق مليء بالدهشة والتساؤل، إذ أنها تتيح له التوسع في أفقه المعرفي، والامتلاء بالكثير من التساؤلات الفطرية التي وصلت ببطل القصة (حي بن يقظان) الى سلم المعرفة بالحقائق الأساسية للعلم والإيمان، وقد كتب ابن الطفيل هذه القصة رداً على صديق طلب إليه شرح الفلسفة الاشراقية عند ابن سينا ، وكذلك الهدف منها إحداث مصالحة مابين الدين والفلسفة والعقل والإيمان وإحداث التوافق بينهما ."[20] اشتغل الكاتب الفيلسوف على فضاء الطبيعة، فاستعار مكوناتها ومظاهرها لتجسيد أسئلته وربطها بأسباب وجودها، فالطبيعة هي المهد الأول للإنسان وهي ملجأ حي بن يقظان، فيها وجد

الحنان والرعاية من قبل الظبية وباقي الحيوانات. وقد اضطلع السارد بوصف تلك العلاقة وصفا تفصيلا غاية في الحب، نقرأ من القصة:" إنّ الظبية التي تكلفت به وافقت ومرعى اثيثا، فكثر لحمها ودر لبنها، حتى قامت بغذاء ذلك الطفل أحسن قيام، وكانت معه لا تبعد عنه إلاّ لضرورة الرعي. وألف الطفل تلك الظبية حتى كان بحيث إذا هي أبطأت عنه اشتد بكاؤه، فطارت إليه. ولم يكن بتلك الجزيرة شيء من السباع العادية، فتربى الطفل ونما واغتذى بلبن تلك الظبية إلى أن تمّ له حولان، وتدرج في المشي واثغر، فكان يتبع تلك الظبية. وكانت هي ترفق به وترحمه، وتحمله إلى مواضع فيها شجر مثمر. فكانت تطعمه ما تساقط من ثمارها الحلوة النضيجة، وما كان منها صلب القشر كسرته له بطواحنها. ومتى عاد إلى اللبن أروته، ومتى ظمئ إلى الماء أوردته، متى ضحا ظللته، ومتى خصر أدغأته. وإذا جن الليل صرفته إلى مكانه الأول، وجللته بنفسها، وبريش كان هناك، مما ملئ به التابوت أولا في وقت وضع الطفل فيه. وكان في غدوّهما ورواحهما قد الفهما ربرب يسرح ويبيت معهما حيث مبيتهما." [21]تتحدد العلاقة بين الطبيعة وحي بن يقظان من خلال علاقته بالظبية وباقي الحيوانات ومكونات الطبيعة الأخرى. لقد أكد ابن طفيل من خلال علاقة حي /ظبية التربية الفطرية الطبيعية للإنسان.

خامسا: قصة حي بن يقظان ومقولة نص النصوص.

تتعايش الأنواع الأدبية وتتطوّر من خلال علاقات التأثير والتأثر التي تحكم منطق الأدب الذي لا يعترف بالثبات، فالنصوص الإبداعية لا تنشأ من العدم بل هي نتيجة حتمية لتلاقي وتمازج جملة من الخطابات والنصوص والمعارف السابقة.

تعتمد قصة حي بن يقظان مبدأ الانفتاح على نصوص سابقة. عرف ابن طفيل كيف يحولها ويحورها إلى منجز سردي قصصي معرفي فلسفي. فكان الحضور جليا في شكل اقتباسات وتوظيفات للخطاب الديني، والتراث الفلسفي، والخطاب العلمي..

يمكن أن نستنتج مدى استفادة ابن طفيل من الخبرات والمعارف التي تحصل عليها طيلة تجربته الحياتية، فهو مفكر وأديب وفيلسوف من خلالالبحث عن أنواع التفاعلات النصية التي وردت في القصة في شكل اقتباس أو تضمين:

أـ حضور القصص القرآني:وهذا طبيعي بحكم الثقافة الإسلامية التي ميّزت الكاتب، فحضر السرد القصصي في قصة حي بن يقظان كتأكيد قوّي على فاعلية القصة القرآنية في إيصال الرسائل والخطابات المنفعية، التي استقى منها ابن طفيل تصوّره لمفهوم التعبّد والاستغراق في التأمل، من بين القصص الحاضرة:

ـ **قصة خلق آدم :** وهو ما جسدته قصّة ولادة حي بن يقظان التي تجعل منه انسانا متميّزا، ولد وحيدا في جزيرة من جزر الهند.

ـ **قصة موسى عليه السلام** :وقد اقتبس حادثة التابوت التي اهتدت إليها أم موسى عليه السلام بعد أن خافت على رضيعها من بطش فرعون وجنوده، والأمر ذاته ينطبق على حي بن يقظات الذي رمت به الأقدار في تابوت خوفا من الفضيحة التي يمكن أن تطال والدته التي تزوجت سرا دون علم أخيها الملك.

ـ **قصة أصحاب الكهف:** يكمن موطن التشابه والتطابق بين القصتين في كونهما تؤكدان على العلاقة الوطيدة التي تربط الانسان بالطبيعة. فهي مهده الأول سخرها الله لتخدمه

وتريحه من صعاب الحياة، فالفتية لجأوا إلى الكهف للتعبد والهروب من الكفر، وحي لجأ للجزيرة للتفكر والتأمل والزهد والبحث عن الحقيقة.

ـ قصة الغراب وحادثة الدفن: يحفز موت الظبية حي على البحث عن الطريقة التي يتخلص بها من جسد الظبية، فستقاها من غراب دفن صاحبه، وهي القصة الأولى التي ذكرت في القرآن الكريم عن الغرابين الذين بعثهما الله ليعلما بني آدم طريقة الدفن للتخلص من جثث الموتى.

ب ـ الخطاب الفلسفي : ويمكن إجمال هذا التجلي في الحضور القوي للإشكاليات الفلسفية الكبرى، وهي: من الخالق، العلاقة بين الدين والفلسفة، علاقة الله بمخلوقاته، اكتشاف الذات والكون، ثنائية الجسد والروح..

ج ـ الخطاب العلمي المعرفي: يمكن اعتبار قصة حي بن يقظان فسحة معرفية متنوّعة تحمل العديد من الحقائق والقضايا العلمية. بل يمكن أن تتحوّل القصة إلى موسوعة علمية، فرحلة بحثه دفعته للتساؤل عن كل شيء ـ تقريبا ـ عن الشمس، والأكل، واللباس، والجسد، والروح، القلب، الهواء، النبات، الهواء..

وكخلاصة لما سبق يمكن اعتبار التراث العربي مادة خام يمكن أن تقرأ في كل حين، مرونتها تسمح لها بأن تكون حقلا واسعا لتطبيق آليات المناهج المعاصرة، وقد أثبتت القصة المعرفية ممثلة في قصة حي ابن يقظان أن السرد يشكل دعامة أساسية للتفكير الفلسفي.

سمح تحليل البنية السردي للقصة في اكتشاف صورة البطل الإشكالي حي بن يقظان الذي لا يشبه البطل العادي فيطرق عرضه كشخصية.

أسهم الأسلوب القصصي في إبراز قدرة الكاتب في إيجاد التوازن الفني بين القيمة الفلسفية والقيمة الأدبية.

أتاح التشكيل السردي للقصة المعرفية اعتماد الرمز في الانتقال من البسيط إلى المركب، ومن الظاهر إلى المحسوس، ومن المحسوس إلى المعقول.

الهوامش:

[1]محمد عابد الجابري، التراث والحداثة ، دراسات ومناقشات ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1991 ، صص 15 ، 17.

[2]زهيرة بارش، السرد العربي مفاهيم وتجليات ، نحو تصور تكاملي للسرد العربي ، مجلة العلوم الاجتماعية ، العدد 24 جوان 2017، ص 90.

[3]حسين علي المخلف ، التراث والسرد ، وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر ، ط1 ، 2010 ، ص 23.

[4]ماجد السمراني ، التراث منطلقا للمعاصرة ، مجلة الأقلام ، بغداد ، ع 9 ، 1982 ، ص13.

[5]عباس الجراري ، من وحي التراث ، مطبعة الأمنية ، الرباط ، 1971 ، ص 5.

[6]عويضة كامل ، ابن طفيل فيلسوف الإسلام في العصور الوسطى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، 1993 ، ص 96.

[7]سعدي محمد إبراهيم الزهراني ، قصة حي بن يقظان ، دراسة أدبية بلاغية تحليلية ، رسالة ماجستير ، جامعة المدينة العالمية ، ماليزيا ، ص 23 ، 2012.

[8]. عمر فايز طه، أدبية النص الفلسفي في التراث العربي الإسلامي، دار تموز طباعة ونشر وتوزيع، دمشق، سوريا،ط1، 2011، ص35.

[9]. يوسف وضحي، القضايا النقدية في النثر الصوفي، منشورات اتحاد كتّاب العرب، دمشق، سوريا، (د،ط)،2006، ص73.

[10]. ابن طفيل، حي بن يقظان، مرفم للنشر، الجزائر، 2011،ص97.

[11]عمر فائز طه ، أدبية النص الفلسفي،ص 35.

[12]م ، ن ، ص 10.

[13].أبو بكر بن طفيل،ص 30،31.

[14]المرجع نفسه ، ص 38.

[15]حيدر العتابي ،أنسنة الطبيعة ومحنة الانسان االبدائي ، صحيفة المثقف ، العدد 5334 ، الثلاثاء 13-4-2021.

[16]ابوبكر بن طفيل ، حي بن يقظان، ص 59.

[17]. المصدر السابق، ص149.

[18]. صلاح فضل، أساليب السرد في الرواية العربية، مركز الإنماء الحضاري، سوريا،، صص187، 188، 2009.

[19]. زينب الخضيري، الفلسفة في فضاء القصة، ورقة مقدمة لحلقة الرياض الفلسفية، شهر مايو،2015، رجب 1436. http://www.diwanalarab.comlspip.php?article4706

[20]. م ن الموقع ذاته.

[21]. ابن طفيل، حي بن يقظان، ص37، 38.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

ابن طفيل، حي بن يقظان، مرفم للنشر، الجزائر، 2011.

المراجع:

ـ حسين علي المخلف، التراث والسرد، وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر ، ط1 ، 2010 .

ـ صلاح فضل، أساليب السرد في الرواية العربية، مركز الإنماء الحضاري، سوريا، 2009

ـ عباس الجراري ، من وحي التراث ، مطبعة الأمنية ، الرباط ، 1971..

ـ عمر فايز طه، أدبية النص الفلسفي في التراث العربي الإسلامي، دار تموز طباعة ونشر وتوزيع، دمشق، سوريا،ط1، 2011.

ـ عويضة كامل ، ابن طفيل فيلسوف الإسلام في العصور الوسطى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، 1993

ـمحمد عابد الجابري، التراث والحداثة، دراسات ومناقشات،مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1991.

. يوسف وضحي، القضايا النقدية في النثر الصوفي، منشورات اتحاد كتّاب العرب، دمشق، سوريا، (د،ط)،2006.

المجلات:

ـ مجلة الأقلام ، بغداد ، ع 9 ، 1982.

ـ مجلة العلوم الاجتماعية ، العدد 24، جوان 2017.

ـ صحيفة المثقف ، العدد 5334 ، الثلاثاء 13-4-2021.

المخطوطات:

ـ سعدي محمد إبراهيم الزهراني ، قصة حي بن يقظان ، دراسة أدبية بلاغية تحليلية ، رسالة ماجستير ، جامعة المدينة العالمية ، ماليزيا، 2012.